ملخص للورقة البحثية الموسومة" الهوية واللغة في الوطن العربي. جدل الثابت والمتغيِّر"

د. عيسى عودة برهومة

أستاذ اللسانيات المشارك في جامعتَي الإمام محمد بن سعود بالرياض والجامعة الهاشمية بالأردن

ebarhouma@hotmail.com

mobile:00966552163603

يبقى الفكر أمرًا عسيرًا وشاقًا، فهو يتعامل مع أمور معقّدة وقضايا متشابكة ومتغيرات كثيرة تصل حدّ الصراع والاحتدام، وأحد أهمّ الأمور الملتبسة قضيّة الهويّة من جهة، وارتباطها باللغة من جهة ثانية، وطرق التعامل معها وبيان اتصالها بالهويات الأخرى من جهة ثالثة.

في هذه الورقة نحاول الكشف عن بعض الأمور المتصلة بالمسألة؛ إذ لا يعزب عن أذهاننا جميعًا أنّ المسائل الشائكة تحتاج استجلاء وإسعاد نظر وصولا إلى رأي موضوعي يستند إلى نهج قويم.

وسنحاول تبيّن جملة من المسائل منها:

1. تعريف اللغة.
2. تعريف الهوية.
3. العلاقة الجدلية بين اللغة والهوية.
4. العولمة ودورها في تهديد الهويات الوطنية

1- **اللغة:**

إن وظيفة اللغة تكمن في التواصل بين الأفراد والجماعات، ومع أنّ اللغة وسيلتنا الأساسية لنقل المعلومات في المجتمع البشري إلا أنّ وظائف اللغة ليست مقتصرة على هذا الجانب؛ فهي ليست كينونة مغلقة ولا جزيرة معزولة؛ إذ تتمظهر على ألسنة الناطقين بها ويتحقق وجودها الفعلي بهم، تُعرف بهم ويُعرفون بها فتكون رمزًا للهوية.

ولعل من حِكَم وضع اللغة أنّ الإنسان لما لم يكن مكتفيًا بنفسه في حياته ومقيمات معاشه كان لا بدّ من أن يسترفد المعاونة من غيره؛ ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا[1]. وهذا يعني أنّ الإنسان كائن مدنيّ بطبعه كما أنه كائن لغوي مفكر.

2- الهُويّة:

تظلّ الهويّة _ وفقا لرأي أمين معلوف_ كلمةً خائنة برغم أنها تبدو ظاهريًا شفافة؛ إذ هي منبع التناقضات:

التأصيل مقابل التحديث

الأنا مقابل الآخر

الخاص مقابل العام

الانغلاق مقابل الانفتاح

فهي لم ترد في المعاجم العربية القديمة، وإنما جاءت عبر ترجمة كتب الفلسفة اليونانية، وقد كانت تعني الوجود المطلق أو حقيقة الإنسان أو الشيء، فـ"هو" مقابل "الآخر" في هذا السياق؛ أيْ اكتشافه والتلاقي معه، و"هو" عند فرويد تعني "الأنا" أيْ التعبير عن الذات، وهي مفهوم محايد على، والأمور المحايدة يصعب التعامل معها؛ وتبسيط القول عند هذه المسألة أنّ الهوية تعني : الأنا مقابل الآخر؛ الأنا الفردية مقابل الآخر الفردي، والأنا الجمعية مقابل الآخر الجمعية، وهوية الفرد أقل تشابكاً وتعقيدًا، وكلما تعاملنا مع شريحة من الناس تعقد مفهوم الهوية وصعب التعامل معه أيضًا.

والهوية يكتسبها الإنسان من واقعه المحيط به، فهو يواجه الآخر كلّ يوم، بكل قيمه وأخلاقه ورواسخه وعاداته وتراثه، وكلّ يوم يضيف إلى مخزونه الخاصّ صورة أوسع عن الهويّة، حتى تتشكل بشكل يسهل تصوره أو يصعب وفقَ استعداد الفرد والجماعة للخوض في الجدل الواسع في تبيان مفهوم الهوية.

وثمّة عناصر تؤثر في تشكيل الهوية وبنائها مثل العنصر الزماني والعنصر المكاني (الجغرافي) والفكر والفلسفة والدين.

3- العلاقة الجدلية بين اللغة والهوية:

اللغة والهوية خصيصتان إنسانيتان يمارسهما الإنسان منذ مقدمه إلى الوجود، لا يشاركه في ذلك أي كائن آخر؛ فهو الوحيد الذي يفكر ويعي وجوده في هذه الأرض عن طريق لغته التي بدونها يبقى بلا هوية تدلّ عليه؛ إذ اللغة ليست

[1] السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. الزهر في علوم اللغة وأنواعها.شرح وضبط وتصحيح محمد جاد الله، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، م1

كلمات ومفردات ومعانيَ فحسب، بل إنها تعد من صميم الهوية. إنها مثوى الفكر، بها ترتفع منزلة أقوام وبها تنحطّ منزلة أقوام آخرين، فهي في منزلة الأمور المتضادة أيضًا تمامًا كما اللغة، وتستخدم لغة الخير والشرّ على المستوى نفس، الشعر والحبّ والجمال والكره والبغض والانقضاض، في المعاهدات والصلح وفي الوعيد والتهديد. إنها مفصل التاريخ، فمن يملك لغة يستطيع أن يجيّر كلّ شيء وفاقًا لمصالحه بما تخدمه في ذلك إمكانياته ومدى توقه إلى بسط نفوذه على غيره. ولا يعدّ الإنسان إنسانًا بدون لغة، هذا يعني أنّ اللغة هي التي أنسنت هذا الكائن وأسبغت عليه حدّ "الحيوان الناطق" حسب تعريف المناطقة له. حتى إنّ الطفل عندما يقدم إلى الحياة لا يوجد ثمة شيءٌ يربطه بها إلا بما تمليه عليه فطرته المتعلقة بارتباطه بأمه وأبيه، وبتدرجه في الحياة واكتسابه لغته تلقائيًا يكون إذ ذاك قد وعى وجوده وتكون لديه إحساسٌ بهويته.

وكلّ إنسان سجين لغته وبها نستدل على هويته، وحينما يكون بعيدًا عن مثواه بين جماعته، فإن أوّل كلمة ينطق بها تومئ إلى تاريخه وحاضره وحتى استشراف مستقبله. إنه لا يستطيع انفكاكًا عنها.

وهناك وشيجة متضامة بين اللغة والثقافة بوصف الثقافة عنصرًا مهمًا من عناصر الهوية، ويعرّفها إدوارد تايلور بأنها: الكلّ المعقّد الذي يتضمّن المعرفة، والإيمان، والفنّ، والأخلاق، والقانون، والأزياء، والعادات، وأية عادات وتقاليد أخرى في حياة الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع. والثقافة تعدّ بمنزلة الموجه لهوية الأمّة وخصوصيتها، والإعلام هو من يعرض الثقافة، فمنوط به إبرازها وجعلها على حيّز الوجود، ولكن الإعلام –خاصّة في الدول العربية– لم يخدم اللغة العربية كثيرًا حينما يستخدمها في عمقها الثقافي فحسب، بل إنّ الاستخدام الإعلامي للغة ذو توجهات بعيدة عن اللغة نفسها ونائية عن الثقافة عينها أيضًا، وحينما تهمّش اللغة فذلك ليس مؤذنًا بإقصاء الثقافة وحسب، بل إن أركان الأمة جميعها ستتهاوى واحدة إثر الأخرى إن لم يكن بشكل تزامني، بما فيها من بَشَرٍ وإمكانيات؛ إذ إن "اللغة والثقافة والشعب" مثلث يكون متماسكًا بأضلاعه جميعًا وإذا تهاوى أحدها فإن المثلث كله معرض للانهيار ومن عقب ذلك التلاشي. فالعلاقة إذن تبادلية تأثرية؛ إذ تستطيع الثقافة أن تجعل من أمة ما متصدرة المشهد الكوني وبمكنتها أيضًا أن تقصيها من الحياة؛ ولذا فإن الأمر منوط بالمثقف أن يهتم بلغته– هويته عن طريق نشرهما بواسطة الثقافة، فهو مؤتمن على شؤون الفكر، فإذا ما تضامّ المفكرون والمثقفون أجلَ أمتهم بما تضمّه بين جناحيها من قيم فإن غبّ ذلك النسيج قوّة الأمة ومنعة لها من الموت أو التقهقر. وبالعكس أيضًا إذا لم يَسأل المثقف المؤتمن عن أمته وشؤون فكره ولم يُساءل وكان فوق المحاسبة فإن نسيج الترابط التي ستكوّن لحمة المجتمع وسداه لن يزداد من الأمية إلا اقترابًا، وعن المثاقفة الفاعلة إلا انزياحًا، ومع أن لعبة السياسة الدولية هي التي تتحكم بالثقافة، إلا أنّ "الوعي السياسي" هو أول الحلفاء الرافدين للمثقف إبان معالجته للمسألة الثقافية عامة، والهوية باتصالها المعقّد بالعولمة خاصّة، والواجب أيضًا على المثقفين والمفكرين على السواء إن كانوا أغيارًا على أمتهم أن يشعروا بهذه المشكلة، مشكلةِ الهوية، إذ في رحم الشعور تورق بذور المسؤولية الثقافية، وتستحيل آليات التعامل بين المثقفين – أدباء مبدعين ونقاد باحثين وعلماء

مستكشفين– إلى دستور جماعيّ يتأسى المجتمع ببنوده ويحتمي بتوصياته، فيتعلم قواعدَ المواطنة ويرتاض بأصول التمدن فيلج إلى عصر الحداثة الحضارية دونما تردد أو انشطار.

4– العولمة ودورها في تهديد الهويات الوطنية:

لا يخفى على أحد أن العولمة بادئ الرأي تمثل خطراً على الكيانات الوطنية، بما تتبناه من مشاريع توسعية في مختلف مناحي الحياة، فهي تحاول تأطير العالم بشِرعة واحدة وجعل لغته واحدة وثقافته واحدة وعالميته قرية صغيرة بفضل التقدم التكنولوجي والمعلوماتي، فهي تنتهج سياسات الهيمنة تقودها القطب الأوحد في العالم– أميركا وذلك بعدَ انهيار الاتحاد السوفياتي الذي كان يناوئها في القوة، وبانهياره شعرت أميركا بفقد جزء من التحامها المرتبط بهويتها الذي كان يرعاه وجود آخر في صورة تهديد أو عداء فكان أن خلقت عدوًا جديدًا هو العالم الثالث بتعبير تشومسكي. ولا ريبَ أنّ العولمة المتوحشة بهذه الأيدولوجيا وممارسات الاستحواذ خطيرة على الهُويّات الوطنية وتسعى إلى طمسها وتهميشها وإقصائها عن مشهد الحياة. ولعلّ خطرها يغطي مختلف الشعاب السياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية؛ بل إنّ من أظهر العناصر التي تستغلها العولمة هو الثقافة؛ إذ إنها تتعامل مباشرة مع السلوك والفكر الإنساني وإعادة صياغته بما يتواءم مع منهجيتها في السيطرة.

واللغة بوصفها وعاء الفكر من أهم الأمور التي اهتمّت بها أميركا حتى تستمسك بقوتها وإحكام قبضتها على اللغات الأخرى، فسارعت إلى تذليل جميع الصعوبات أمام مدها الجارف حتى أصبح مقررًا أنه لن يكونَ بمقدورك إن لم تتكلم الإنجليزية المعيارية وتقطن في أميركا العيشُ بوجه هانئ، فوضعك الاجتماعي والمادي وثيق الصلة مع تكلمك اللغة الإنجليزية الأميركية المعيارية، ولهذا لا نعجب كثيرًا من وصف اللسانيين استعمال لغات الأقليات بأنه غيرُ مناسب، وهذا ما يعد مثالاً على الهيمنة اللغوية السارية في العلوم الإنسانية، ولعلنا لن نحيد إن اتفقنا على أن حيادية الإنجليزية وعدم ارتباطها بأيديولوجية —كما يبرر حملتها– هي فرضية مشابهة للفرضية التي تقول إن العالم الثالث ظاهرة لا تستحق الدراسة المعمّقة.

غير أن نظرة فاحصة مدققة أو متبصرة تعي جيدًا فوائد العولمة وأنها ليست ندًا، إن أحسن التعامل، للهوية بل إنها ضرورة ملحة في هذا الوقت من الزمان، وبوسع أية أمة أن تفيد منها بما لا يجعلها تنسلخ عن هويتها كما سنرى في مبحث وجهتي النظر حول جدل العلاقة بين اللغة والهوية.

5– وجهتا النظر في العلاقة بين اللغة والهوية:

لم يكن الإنسان الأول يشعر بحاجته إلى السؤال عن الهوية، بل كان يمارسها على أرض الواقع، فكان يعمل ويزرع ويأكل ويشرب، في مختلف الحضارات، ولم يشغله شاغل عن دأبه في العيش، وهكذا استمرّ في بناء حضارته وتشييدها واكتساب عناصر لغته بالممارسة وليس في المخيلة، فلم يكن مصابًا بانفصام في الشخصية، ولعلها الحياة الهادئة هي

التي جعلت تفكيره ساذجًا لا تعقيد فيها؛ فضروب العيش نفسها ساذجة ووسائل الاتصال أولية. إنه يعمل ويكافح في العيش دون كلل أو ملل.

ولكن بمرور الوقت ودخول العالم حالة من الثورات الزراعية والصناعية والعلمية جعل من فروض الحياة، وخاصة في الحضارات الأقلوية، البحث عن سؤال طارئ مؤداه أين هويتي- أمرًا ملحًا صنفت فيه المصنفات والبحوث والدوريات، وكلها تتساءل عن مصير الهويات الوطنية أمام وصول العالم مرحلته القصوى من اقتصاد السوق واستئثار قوة وحيدة على عرشه؛ فالسؤال عن الهوية تعددت الإجابة عنه واختلفت وتعقدت، مسرفة في الإفراط أو ممعنة في التفريط. والسؤال المتفق عليه بشأن الهوية هو:

- **هل العولمة مهددة للهويات الوطنية أم معززة لها؟**

واختلفت الإجابات عنها وافترقت ولعل أشهرها:

الانغلاق خير مطية لنقاء الهوية

1. هذا الرأي كما هو بارزٌ من عنوانه يجعل من الخير على الأمم والمجتمعات الأقلوية —حسب التأثير وليس العدد- إن أرادت أن تحافظ على خصوصيتها وألقها وصفائها أن تنأى عن الحضارة، وتغض الطرف عن المشاركة الفاعلة بين الحضارات، وترى أنّ **العولمة** خطرٌ كلها، وعليها أن تناوئها بأن تبتعد عنها، وفاقًا للمثل السائر "الهروب ثلثا الرجولة!- مما ينعكس ذلك سلبًا عليها؛ إذ إنّه لا يوجد هناك من حضارة صافية ولا هويّة نقيّة خالية من الشوائب، فكلّ الحضارات— حتى العالمية منها- تؤثر وتتأثر بالحضارات الأخرى، وذلك عن طريق الغلبة وانتقال منجزات حضارية معينة إلى بيئة أخرى خلاف البيئة التي أنجزتها. وكما سبق القولُ فهي تعيش حالة انشطار وأزمة فكر، فسؤالها عن الهوية التي تحاول جعلها نقية سؤال طارئ، والأسئلة الطارئة إجابتها تحتاج إلى خبرة كبيرة حتى تستطيع أن تفككها وتخرج بنتيجة مناسبة، وأنى لمثل هذه الثقافات أن يتكون لديها تصور خبير إذا لم تتزامل مع ثقافات الأمم الأخرى؟!.

تعيش الجماعات أيضًا حالة تخبط وعدم تمييز ما بين الثابت التي ينبغي المحافظة عليه، وما بين المتغير الذي لا يضير إن تصرفنا— على نحو معين- فيه بحيث لا نفقد خصوصيتنا ونذوب في الآخر.

الانفتاح طريق التقدم

2. وهذا الرأي كما هو بيّن من عنوانه أيضًا يوحي بأن على الأمم الأخرى إن أرادت "الخير" لها أن تلحق بركب الحضارة، ويتزعمه عدد من المفكرين المؤدلجين فكريًا لصالح الدول المهيمنة، وترى أنّ العولمة إنما

هي امتداد لمسؤولية الرجل الأبيض! حتّى إنّها تلغي الحضارات الأخرى إلغاء حتى بلغت الذروة في "أوهام الهوية" ويتزعم هذا الرأي عدد كبير من المفكرين ذوي الأجندات الغربية كصاحب "صدام الحضارات" صموئيل هنتنغون وصاحب "أوهام الهوية" داريوش شايغان، ولعلنا نعضد رأي هذين المفكرين، إن أردنا، أن نحسن الظن بأنه ما من أيدولوجيا سياسية أو ثقافية تقف خلف أفكارهما، إذ إنّ العولمة في ذاتها أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة، وإننا نتعولم يوميًا، وهذه مُسَلَّمة لا أظن أنها أصبحت محلاً للجدال، ولكنّ أسلوب التعامل معها هو الجدال بعينه، فنحن_ العربَ_ نستفيد حقًا من العولمة في الإسهام الفعلي في إنتاجها، لا مجرّد استهلاكها والدوران في مداراتها السلبية والمستضعفة والاستتباعية لمراكز خارجية. ولكننا نتوجس كثيرًا، وفي التوجس بعض الحذر، لأننا لا نمتلك الخبرة الكافية في كيفية التعامل مع الحضارات الأخرى، وما أكثر ما تنقصنا خبرتنا!

إنّ تلك الأفكار والتنظيرات إنما تثبت سيادة العولمة – الغرب– أميركا– الرجل الأبيض على العالم، وتثبت أيضًا أن التمسك بالهويات تحجرٌ و"هبوط من الجمودية إلى الظلامية". وكلنا خبراء أن هذا الرأي إنما يستند على مثل هاتيك الأيدولوجيات المتطرفة إن صح القول.

الرأي الأوسط

لن نتكلم كثيرًا أن عالمنا هذا يهيئ لأي شخص أو جماعة الفرصة الكافية للتعبير عن رأيها والدفاع عنه بوسائل الإنفوميديا المتطورة ، فإذا كنا– نحن العرب– لا نريد للغتنا الموت وأن ننعم بهويتنا وثقافتنا وخصوصيتنا وحريتنا... فمعركتنا مع الآخر ليست خاسرة سلفًا، فثمّة أمثلة تبرز بجلاء أنّ الذين يقاتلون بمهارة ضد التسلط والظلامية والتمييز والاحتقار والإغفال يمكنهم أن يكسبوا القضية في أغلب الأحيان. فعصرنا عصر مدهش حتى إن أي شخص لديه فكرة عبقرية أو متطرفة يمكنه أن يوصلها إلى عشرات الملايين من الناس في اليوم ذاته. أفلا نستفيد؟؟!

خاتمة:

اللغة ليست مسألة اتصال فحسب بل مسألة رموز بالدرجة الأولى، والإنسان الذي يتكلم يكون مدنيًا مفكرًا؛ فهي وعاء فكره وبوصلته الهادية إلى هويته.

والعولمة خطرة إن أردنا أن ننأى عنها، ومفيدة أن رفعنا رأسنا وفتحنا ذراعينا، إننا بذلك نكون قد اخترنا للغتنا– هويتنا البقاء والصيرورة والسيرورة. وولوجنا في العولمة لا يعد انسلاخًا عن الهوية بل مؤكدًا لها ومعززًا إذا أتقنا فن الخطاب وخاصة الثقافي منه. وإذا لم نستمع لأقوال المرجفين ولم نأخذ برأي المأخوذين، بل نبقى متوسطين في الرأي والفكر. مما يعود على حضارتنا بالازدهار والتحديث مع المحافظة على الأصالة والثوابت.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر المادة الأولى التي جاءت في إعلان المبادئ سنة 1966 المنبثق من المشروع الذي احتضنته اليونسكو " الفهم المتبادل للقيم الحضارية للشرق والغرب " والذي استمر خلال عقد من الزمان (1957، 1966). يقول الإعلان في مادته الأولى :

أ) كل حضارة لها اعتبارها وقيمها التي يجب المحافظة عليها واحترامها.

ب) كل شعب له الحق وعليه واجب تنمية حضارته.

ج) كل الحضارات بكل ما فيها من تنوع واختلافات عميقة وتأثير متبادل على بعضها البعض جزء من الإرث العام للبشرية.